قبيلة عربية

من اصل ايطالي

شغفت من عهد بعيد بمطالعة مؤلفات السائحين الذين وفدوا منذ القرون الوسطى حتى القرن الماضي على مصر وبلاد الشرق الادنى فتراءت منها الشيء الكثير ولا سيما ما كتبه السائحون الايطاليون امثال شريا كو دي أنكونا — وليوناردو فرسكر بالدي — وبيترو ديلا ڤاله — وجيوڤاني باتستا بلسوني دي پادوا — وايبوديتو روزوليني دي پيزا وغيرهم الذين قصوا في مؤلفاتهم كثيراً من الاخبار الطريفة عن مصر وآثارها وأهلها من حضر وبدو وذكروا الكثير من عاداتهم وصناعاتهم وطبائعهم. وقد لفت نظري بنوع خاص ما كتبوه عن القبائل العربية الضاربة في صحراء ليبيا ولكن بعد كل ما اطلعت عليه من اخبار هذه القبائل لم يكن ليخطر ببالي ان احدى هذه القبائل الشهيرة بقوتها ومنعة جانبها وهي قبيلة «السناجرة» يجري في عروق ابنائها الدم الايطالي حتى كان الاسبوع الماضي عند ما ذهبت لزيارة صديقي العالم الكبير الاستاذ الدكتور جوڤاني كابوتيلا المدرس بالجامعة المصرية — في منزله ووجدت في يده مجلداً ضخماً هو مذكرات احد هؤلاء السائحين الايطاليين الذين زاروا مصر في القرن الماضي وهو العالم المهندس روبتي بريكتي Robecchi-Brichetti الذي وصل الى مصر في سنة ١٨٨٥ ميلادية وبقي فيها مدة وكان هو اول من قام من الاوربيين برحلة في واحة سيوه والجهات المجاورة لها وكانت رحلته بحجة الاستقصاء وجمع الاعشاب الطبية المفيدة في معالجة المرضى ولكن يظهر انهُ كان له غرض آخر لم يكن ليبوح به لاحد وهو البحث عن موميات القراعنة المدفونة بالواحة لانهُ خاطر بحياته بالنزول في احدى مقابرها القديمة ونجح في استخراج عدد كبير من الموميات من بطونها وهي احسن ما وجد من هذا النوع وارسلها كلها الى ايطاليا حيث لا تزال موضع اعجاب السائحين والمتفرجين في متحف فلورنسا. وقد اعجب بها وشاد بذكرها الكاتب الايطالي الذائع الصيت پاولو مونتجازا Paolo Montegazza ، ومات بريكيتي من عهد قريب بعد ان طبع مذكراته في سنة ١٩٠١ م عن رحلته «الى معبد آمون»

وبعد ان استقر بي المقام بمنزل الدكتور كابوڤيلا بادرني بسؤالي عما عساني ان اكون سمعت عن قبيلة السناجرة وعن منشئها ومؤسسها فقلت له لقد سمعت بها وافلن انني سبق ان قرأت شيئاً عنها وكل ما اذكره انها من القبائل العظيمة الشأن التي تقيم في صحراء ليبيا في منطقة واسعة ممتدة على الحدود المصرية الطرابلسية عند ساحل البحر الابيض المتوسط من شرق مدينة طبرق حتى واحتي جغبوب وسيوه جنوباً وعندئذ قال لي الا تعلم ان هذه القبيلة من اصل ايطالي وانها تنسب الى رجل من مدينة شا كا Sciacca في جزيرة صقلية اسمه سينكيري ترينا كريزي Sinchieri الذي سماه العرب « سنجر » عند ما اسلم وأقام بينهم ولاسلام هذا الرجل قصة طريفة تقرأها في هذا الفصل وفتح لي المجلد وأشار لي الى فصل عنوانه « قبيلة عربية من اصل ايطالي » فلما قرأته آثرت نشره لطرافته وها هو بالحرف الواحد

« ٩ اغسطس

انتشر بسرعة البرق ذلك النبأ القائل بان نصرانيًّا أو اوروبيًّا حضر مع القافلة من مدينة الاسكندرية وذلك لانني عقب انبجر في الصباح الباكر ألفيت نفسي يحيط بي عدد كبير من الناس الذين حضروا لمشاهدتي ولقد كانت هذه أول ليلة اقام فيها تحت خيمة حقيقية منذ ان بارحت مدينة الاسكندرية ونمت نوماً هادئاً لذيذاً لانني لم اعد افكر في السهر على امتعتي وأمنت حق سطو اي انسان عليّ وذلك لانني نزلت ضيفاً على اسرة بدوية من كرام أسر قبيلة السناجرة ولست أدري هل كان سروري يشعوري بالراحة والطمأنينة أو هو الهواء الطلق النقي أو نسيم البحر القريب هو الذي قوّى عندي الشهية لتناول الطعام لانني بمجرد ان استيقظت من نومي وتناولت قهوتي شعرت بحاجة شديدة الى الاكل والتهمت صحناً كبيراً من الارز وبعض القوقع البحري الذي كنا جمعناه في اثناء الطريق في اليوم السابق

* * *

ويخيل اليّ انني حصلت على معلومات صحيحة طريفة عن قبيلة السناجرة وكل ما عرفته في هذا الشأن وصلني عن طريق شاب بدوي غاية في الادب واللطف اسمه حسن عبد المولى ذكي الفؤاد عذب الحديث يبلغ السابعة والعشرين من عمره تزوج من زمن ليس بالبعيد ولكنه سرعان ما افترق عن زوجته لعدم تلاؤم طباعهما . وقد تعلم هذا الشاب القراءة والكتابة منذ الحداثة في احدى مدارس السنوسيين في زاوية « رحم الغرب » وكان رفيقي في رحلتي من الاسكندرية الى هنا وقد جذبني طول الحديث بلطفه وادبه الجم حتى صرنا صديقين حميمين وبالامس لم يكد ينزل عن ظهر بعيره حتى دعاني الى خيمته وقدم لي ماء عذباً طيباً احضره من بئر قريبة

ذهبت بعد الظهر الى خيام البدو المتقدمين في السن من الرؤساء ذوي النفوذ والمكانة للتسليم عليهم ولكي اقدم لهم بعض لفافات التبغ ولكي استقي منهم بعض المعلومات الاكيدة عن قبيلتهم وقد أجمع كلهم على ان السناجرة يكونون شعبة كبيرة من البدو يزيد افرادها على العشرين الف نسمة وكل هؤلاء يرتبطون برابطة القرابة والمصاهرة بالقبائل الاخرى . وتمتاز قبيلة السناجرة باستقلالها المطلق فان رجالها يعيشون مغتبطين وسعداء في جبالهم ذات الطرق الملتوية المتشعبة التي لا يمكن ان يعرف منافذها سواهم ولم يعترفوا باية حكومة ولا باية سلطة حكومية عليهم ولم يخضعوا للتجنيد ولا يدفعون ضريبة ايًّا كانت ولا يتساهلون في اي قانون يخالف عقيدتهم وايمانهم الثابت كالصخور التي يعيشون بينها

* * *

والسناجرة مزارعون مهرة ورعاة اغنام لا مثيل لهم في تربية الماشية ولكنهم يعيشون مستقلين بعيدين عن اية مضايقة من اي نوع كانت ولذلك فليست لهم اية علاقات باحد قانعين برعاية اغنامهم ومواشيهم هنا وهناك ولا يزرعون من الاراضي الا بقدر ما هو ضروري لهم ولحاجاتهم وما اسعد الرجل الذي لا يعرف الحاجة لانه لا يعرف ما هو الحرمان مادام يطعم ممتلئاً مهما كان نوع الطعام الذي اكله !

واني لاستطيع ان افهم سر الجفاء القائم بينهم وبين اولاد علي الذين هم اعظم القبائل في الصحراء الليبية والذين يبلغ عددهم نحو المائة الف نفس دون مبالغة وكلهم شجعان اقوياء محبون للقتال ولكنهم مع هذا خضعوا لسلطان الحكومة المصرية في عهد المغفور له محمد علي باشا عزيز مصر وكانوا يقدمون للجيش المصري حتى عهد المرحوم سعيد باشا عدداً كبيراً من الجنود البواسل وهذا الجفاء الموجود بين القبيلتين الصديقتين يرجع الى علاقات اولاد علي بالحكومة

واذا كانت لاولاد علي السلطة والهيبة على قلب الصحراء فان السناجرة يسيطرون على البحر وسواحله ولذلك فانهم يقدسون المثل السائر بينهم الذي يقول « طلعنا من البحر وداخلين في البحر »

وهم قبل ابتداء فصل الامطار يسرعون في حرث الارض وبذر الاذرة والفول والعدس والبصل والبطيخ والخيار وعلى الاخص الارز ثم بمجرد سقوط الامطار الاولى يهرعون جميعاً وتذهب كل اسرة من اسرهم للاقامة شهرين او ثلاثة اشهر في الجهة التي يرونها اخصب واكثر ملاءمة لهم من غيرها ثم يعودون فيما بعد الى نصب خيامهم في اماكنها الاولى لكي يتمتعوا بالمحصول الوافر الناتج من الارض المزروعة

ومنهم من يفضل البقاء او يختار جبالاً او سهولاً او اودية اخرى ولكن كلها على مقربة من البحر الذي هو اصل ميثهم

ولقد استطعت ان اصل الى معلومات هامة عن قبيلة السناجرة استقيتها من اوثق المصادر واصدقها فان تاريخ هذه القبيلة يرجع الى ثلاثة قرون مضت عند ما خرج رجل من اهالي شاكا في جزيرة صقلية اسمهُ سينكيري تريناكريزي Sinchieri Trinacrese كان يشتغل بصيد الاسماك في سفينة شراعية مع جماعة من رفاقهِ الى الساحل الافريقي لصيد الاسفنج والمرجان ولكن السفينة غرقت بكل من فيها ولم ينج منها سوى هذا الرجل الذي القت بهِ الامواج بالقرب من الشاطئ فالتقطهُ العرب وكان في حالة يرثى لها وأنقذوه من الغرق والهلاك

***

ولقد كان خوفه وهلعه منهم شديداً ولذلك فانهُ بقي عدة ايام دون ان يتفوه بكلمة واحدة بينما كان البدو يكرمون مثواه ويعاملونهُ احسن معاملة ويعتنون بهِ العناية كلها ولذلك فقد أسرتهُ هذه المعاملة الحسنة التي عاملهُ بها العرب وذلك الاستقبال الودي الذي قابلوه بهِ فلم يُردْ مفارقتهم ولم يشأ العودة الى وطنه وآثر ان يقضي بقية عمره بين اولئك البدو الذين ردوا اليهِ حياته

ولكي يظهر لهم امتنانه واخلاصه ويؤكد لهم اعترافه بجميلهم ترك عقيدته الاصلية واعتنق دين الاسلام ثم تزوج فيما بعد من احدى بناتهم الجميلات وربما كان بقاؤه بين العرب واختياره هذه الحياة الجديدة وهذه العقيدة الجديدة راجعاً الى تعلقه وهيامه بتلك الفتاة الحسناء التي تزوج منها والتي كانت بدوية رائعة الجمال

ولا يزال العرب من ابناء هذه القبيلة يذكرون اسم سينكيري (صنجر) مؤسس قبيلتهم هذا بكثير من الاحترام والتبجيل وابناء هذه القبيلة اقوياء الابدان حسان الوجوه يكرمون الضيف وشجعان غيورون »

***

الى هنا انتهى ما كتبهُ بريكيتي ولعل عند سمو الامير الجليل عمر طوسون علم هذه القبيلة ولعلهُ عرف شيئاً عن تاريخها من أثر بحثه وتنقيبه في صحراء ليبيا ذلك البحث الذي ابان عنهُ في محاضرته النفيسة الاخيرة

طه فوزي